هل الحرب شر لا بد منه ؟

المحاضرة التى افتتح بها حضرة صاحب المعالى وزير الشؤون الاجتماعية موسم المحاضرات فى قاعة يورت الذكارية .

إنى لمغتبط بأن أقف على هذا المنبر الذى طالما انبعثت من فوقه كلمة الإصلاح والثقافة حرة قوية فتقبلتها الأمة شاكرة مغتبطة .

و إنى لأرجو أن يكون هذا الموسم كالمواسم السابقة ناجحا بالغ الأثر فى حياتنا الاجتماعية.

و بعد فإنى أعجب لماذا خصنى حضرة الأستاذ كليلاند بالكلام عن الحرب وأنا أتأمل نفسى فأجدنى لا أصلح للحرب بأية حال من الأحوال و بالتالى لا أصلح للكلام عنها وعن الحكم عليها !

ثم أتساءل عما إذا كان هـذا الوقت الذى نسمع فيه قصف المدافع هو الوقت الملائم للتفكير ، فيما إذا كانت هذه الأصوات المزعجة ضرورية أم غير ضرورية ؟

ولكنى أعود فأقول : إن الكلام عن الحـرب شىء آخر غير الحرب وممارستها على كل حال !

* * *

هل الحرب خير ؟ :

إن الكلام عن الحرب قديم كالحرب نفسها ، والحرب قديمة قدم الإنسان على ظهر هذه الأرض .

وعلى الرغم من أن الحرب هى الموت والخراب والآلام فقد اختلف المفكرون فى أمرها ، اختلفوا فى طبيعتها ، وفى إمكان الاستغناء عنها ، بل إن من بين كبار المفكرين من مجدها ونظر اليها كأنها عنوان الحيوية مهما حصدت من الأرواح الفضة الفتية .

يرى "برودون" أن الحرب ظاهرة فسيولوجية ، وانها دافع من دوافع النفس يكون ثروتنا العلمية والخلقية . إنه يقول إنها سنة من سنن الحياة ، لأن مظهر الحياة هو الحركة والقوة ، والمظهر الأول للحركة والقوة هو الكفاح والحرب ، فالإنسان يكافح فى سبيل الحياة كل ما يقف فى طريقه . فإن وقف فى طريقه رجل آخر كافحه ووقعت الحرب بينهما .

ويرى "دولين" وغيره من المثاليين أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة فلا محل للقول بأنها تتنافى مع الأخلاق، ولذلك فهى تحدث بين الهمج كما تحدث بين المتمدنين .

أليس قانون بقاء الأصلح حقيقة لامرية فيها ؟ أليست نظرية "تنازع البقاء" أمرا لاشك فيه ؟ فالحرب مظهرهما وأداتهما لإزاحة الضعيف من طريق القوى ، وفى هذه الصورة الأخيرة يتبين لنا أن الحرب ليست ظاهرة فى الحياة الانسانية فقط، وإنما هى ظاهرة الحياه كلها ، وهى وسيلة الطبيعة الأولى لتنظيم الحياة ؛ حيوانية كانت أو نباتية . بل لقد ذهب بعض الفلاسفة قديما وحديثا إلى ذم السلام .

ويعلل "أنسيون" ذلك تعليلا غريبا فهو يقول إن السلام مصدره الثروة ، والثروة أداة اللذة والدعة ، وهى مفسدة أى مفسدة ، تخلق الأنانية ، وتدهور الخلق وتودى بالأمم .

قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم "وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا" .

وقال تعالى "وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ"

إن الحرب أم الشدائد فهى خير واعظ ومرب للأفراد والأمم ، تغرس فى النفس خير الفضائل الإنسانية ، تغرس الشجاعة والقوة . والصبر والحزم ، واحتقار الموت . وتعلم تضحية المال والحرية والحياة ، بل التضحية بما هو أثمن من الحياة ، تضحية الأسرة والأبناء وتضحية المجد ولذة الهوى والشباب .

ولا يظن أن ذلك كله إنما يفعله الانسان مرغما لأنه لاحيلة فى غيره . بل ان هيجيل يفسر ذلك بأن الحرب ضرورية للتطور الخلقى فهى تقوى فضائل الإنسان التى يضعفها السلام.

وهذه الفضائل لاتنمو فى خلق المحاربين فقط بل تتعداها الى غيرهم بحكم التضامن الاجتماعى .

وذهب نيتشه إلى أبعد من ذلك فدعا قومه إلى الحرب وحببها إلى نفوسهم فنادى بأن تكون دينهم .

" يجب أن تحبوا السلام ، لا للسلام نفسه، بل لأنه وسيلة لحرب جديدة ، لا أنصح لكم بالجد فى عملكم بل أنصح لكم أولا بالكفاح . "

" لا أنصح لكم بالسلام و إنما أنصح لكم بالحرب لأنها وسيلة النصر . "

ومن الغريب أن " جوستاف لوبون " يقول ما يقرب من ذلك :

" لو أن هناك أمة سلمية بطبيعتها لمحيت من التاريخ على عجل لأن الحياة جهاد، والجهاد ناموس عام ."

. قد ذهب العرب فى الجاهلية إلى ما ذهب اليه نيتشه فكانوا يقولون لمن مات على الفراش "مات حتف أنفه" وقد سمعت بعض أعراب قبيلة المعازه إلى اليوم يندبون رجلا منهم مات مريضا و يأسفون لأنه لم يمت قتيلا .

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب وقف يخطب الناس فقال :

" لن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفا ، ولكن قتلنا بأطراف الرماح وتحت ظلال السيوف " .

وبذلك يفخر السموءل بن عادياء فيقول :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا ظل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير السيوف تسيل

ولا نزاع فى أنه على جوانب شرور الحرب تثبت مزايا كثيرة ، فهى مهماز الإنسانية يدفعها إلى قطع مراحل جديدة واسعة فى فيافى العلم والمعرفة ، فتقدم الطيران واللاسلكى والجراحة والكيمياء، وكافة الفنون الصناعية تنهض بالأمم وقت السلام .

كما أنها تدفع الأمم إلى وضع تشريعها على أساس اجتماعى يحقق تضامن الطبقات . ففوق أنها تجمع بين الجميع فى صفوف واحدة يستهدفون للقتل والأسر والجوع ، فإنها تدفع الحكومات إلى رفع الضرائب على القادرين مما يقرب الشقة الواسعة بين الأغنياء والفقراء ويحقق المساواة الاجتماعية .

وكثيرا ما يبقى أثر هذه التشريعات بعد الحرب ويعود بالخير على الطبقات الفقيرة ، كتشريعات العمال ، وإعانة الفقراء ، وإعانة البطالة .

* * *

هل الحرب شر ؟

على أنه بالرغم من كل ذلك فشرور الحرب تفوق كل تصور وكما وجد فلاسفة يمدحونها فقد وجد آخرون يذمونها وينددون بها كأكبر رذائل الحكومات والإنسانية .

من منهم فولتير ، ولامارتين ، ولقد كتب إميل دى جيراردان كتابا عن الحرب سماه بأن الحرب ليست إلا السرقة فى أوضح معانيها ، وبأنها ليست إلا القتل وقد برهن على أن الحكومات بما لانها إنما تحرض على القتل والسرقة .

وقال : " إنها القتل والسرقة التى يصفق لها وتنصب لها أقواس النصر مكان المشانق ويكافأ من أجلها بالمال والياشين بدلا من العقوبة والزج فى السجون ، أنها أعظم مظهر على جنون الجماعة لأنها تبيح ما يحرمه القانون والدين " .

ويصف تولستوى المحاربين بأنهم ليسوا إلا قتلة منظمين .

والأديان مجمعة على تفضيل روح السلام والتسامح ، فمن وصايا المسيح عليه السلام ما جاء فى الإصحاح الخامس من إنجيل متى : " سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا "

وجاء فى القرآن الشريف فى قصة هابيل وقابيل : " لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ، مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ " .

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة "

ثم آثر السلم على الحرب بمجرد إمكانها فقال : " وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ " .

والإسلام على العموم لم يقرر إلا الحرب الدفاعية للذود عن الدين أو لحفظ النظام .

ولا غرابة فى ذلك فإن الحرب تترك وراءها اليتم والترمل والتدمير ، وتشل الحركة العمرانية وتنشر الفقر والجوع فى المدن والقرى .

وفوق ذلك فهى تنتزع أصح الأيدى العاملة ، وأنضج الرءوس المفكرة ، وتخلف وراءها ملايين من العجزة والمشوهين .

فى الحرب العظمى مات ٨ ملايين ، وجرح وشوه ١٧ مليونا ، وصرف فيها ألف مليار فرنك وخرب فى أوربا ما قيمته ٥٠٧ مليارات فرنك .

أسباب الحروب :

هناك أسباب لا يمكن عدها تعمل على إثارة الحروب وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة فعلاوة على أن بذور الحرب كامنة فى الطبيعة البشرية بحكم الغرائز التى تدفع إلى حب الملك والسيطرة والتنازع على البقاء فهناك أسباب أخرى تنشئها الملابسات والظروف .

هنالك أسباب أدبية وتقليدية ، منها الأخذ بالثأر الذى يتعدى الأفراد إلى المجموعات. وكثيرا ما ثارت الحروب أيام القبائل البدائية لهذا السبب ، وما قيل من الشعر العربى فى حروب الأخذ بالثأر يكون جزءا عظيما من شعر الحماسة فى الجاهلية و بعد الإسلام .

ومنها اتخاذ الحرب رياضة وفروسية ، كما كان الحال فى العصور الوسطى ومعظم حروب العرب كانت مشبعة بهذه الروح ، وكانت مفخرة من المفاخر للفرد والقبيلة .

وهنالك أسباب تاريخية وقومية كبلغ جزء من الوطن تنازعه فريقان. وقد كانت الألزاس واللورين من الأسباب الأولى فى الحروب بين فرنسا والمانيا ، كما كانت الحرب بين فنلندا وروسيا لسبب كهذا فى أصلها . أو كرغبة بعض الولايات فى الاتحاد بينها وذلك كالحرب الأمريكية بين الشماليين والجنوبيين أو كالحرب بين بروسيا و بعض الولايات الألمانية .

وهنالك عوامل فكرية ودينية : كالثورة الفرنسية ، وثورة الحر على القيصرية ، والحرب الاسبانية . ومثل الحروب الصليبية التى كانت صراعا بين العقائد والأفكار أو بين التعصب لهذه العقائد على وجه أصح .

وهنالك أسباب اقتصادية واجتماعية : فكثيرا ما كان سوء توزيع المواد الأولية والمنافسة التجارية فى ميادين التوزيع سببا من أسباب قيام الحروب ولا سيما فى العصر الحديث ، كما أن سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الداخلية كالعقم والبطالة وتكاثف السكان كثيرا ما تدعو الى الاتجاه نحو الحرب للتخلص منها أو لتعديل الأوضاع القائمة التى تؤدى إلى الفقر والبطالة .

وهنالك أسباب علمية وعمرانية : فالتقدم العلمي والصناعى الذى ينشأ عنه انقلاب فى الأوضاع الفكرية والاقتصادية ، كثيرا ما تنشأ عنه الحرب ، كذلك ، . لنذكر أن التقدم الصناعى هو الذى جعل "الانتاج الكبير" يحل محل الانتاج الفردى ، فزادت كميات الانتاج عن الاستهلاك المحلى ولم يعد بد من ايجاد الأسواق للتصريف وايجاد المستعمرات لانتاج المواد الخام ومن هنا زادت حدة الصراع العالمى وتقاربت الفترات بين الحروب فى العصر الحديث .

وسائل منع الحرب :

وقد فطن المفكرون والسياسيون إلى هذه الأسباب ، و يبدو أنهم عازمون على محاولة منعها بقدر ما فى الطاقة .

فبرتراند رسل الفيلسوف الانجليزى المعروف يرى أن نحاول بث روح السلام بالتربية على شرط أن نبرهن على أن فكرة السلام العام لا تعارض المصلحة القومية ولا تنقص من الروح الوطنية ، و بذلك نكون قد هيأنا النفوس للبعد عن الحرب وحب السلم لمدى طويل .

كما أن دستور الاطلنطى الذى عقد بين الولايات المتحدة و إنجلترا ثم انضم إليه كثير من الدول قد اعترف بضرورة توزيع المواد الخامة توزيعا عادلا ، وبحق كل الأمم فى الحياة التى تريدها .

ومن قبل هذا بذلت عدة محاولات لاستبعاد الحرب كوسيلة لفض النزاعات التى تقوم بين الامم وفى مقدمتها ميثاق بريان — كيلوج وقد نص فيه على استنكار الحرب كوسيلة لفض النزاع وعلى ضرورة الالتجاء إلى الوسائل السلمية دون سواها .

وكذلك كانت شروط ولسن الأربعة عشر المشهورة وميثاق عصبة الأمم خطوتين فى سبيل تحكيم وسائل السلم واستبعاد الحروب ، ولكن وقعت أخطاء فى التطبيق يحاول الساسة الآن اجتنابها كما ورد فى تصريح الاطلنطى .

ثم إن أفكار المصلحين والسياسيين تتجه الآن إلى الحيلولة دون الحرب بواسطة الإصلاح الاجتماعى الذى يذهب بالأسباب الاقتصادية والاجتماعية الداخلية للحروب ويجعلون ذلك قرينا للضمانات الحربية والسياسة الخارجية .

وفى ذلك يقول مستر هربرت موريسون وزير الداخلية الإنجليزية :

"إن الهدف الذى نرمى إليه هو نظام تعاونى دولى يدعمه بوليس وطيران دوليان تعيش الدول فى رحابه ، مضحية عن طيب خاطر ببعض حقوق استقلالها لتتضافر جميعها فى إخلاص على خلق حياة أرقى وأصلح .

" ينبغى أن نعيش فى ذلك النظام الذى يمنح فيه كل إنسان ليس فقط حرية القول والفعل بل حرية العمل .

"ينبغى أن نسير نحو ذلك المجتمع الذى برئ من ذلك الطاعون المزدوج : الغنى المتطرف والفقر المتطرف ، نريد مجتمعا يقبل فيه عن طيب خاطر مبدأ المحافظة على مستوى معقول للصحة والراحة والطمأنينة والأمن والتهذيب لكل إنسان " .

وتلك بشائر عالم جديد إذا أدت إليه الحرب الحالية كان الثمن الباهظ الذى أدته الإنسانية فى شرائه ثمنا معقولا !

على أن بعضهم يرى أن الحرب فكرة قديمة ستزول كما زالت فكرة الأشراف والإقطاعيات ويرى أن الأفراد فى العصور الحديثة سيفضلون مصلحتهم الشخصية على فكرة خيالية مثالية كفكرة مصلحة الدولة والمجموع وبذلك يحجمون عنها .

وعلى طرافة هذه الفكرة فإن الأدب العربى لم يخل من نظرية قريبة منها وهى أن المرء إذا استجاب لدعوة العقل رأى الحرب جنونا .

وقد عير بعضهم بالفرار من الموقعة فقال :

"لأن يقال فر أخزاه الله ، خير من أن يقال مات رحمه الله" وقيل لأعرابى : "ألا تجىء معنا لقتال الأعداء ؟ " فأجاب : "وكيف يكون لى أعداء وما أعرفهم ولا يعرفونى ؟ " وقيل لآخر : " ألا تذهب إلى الحرب ؟ " فقال : " والله إنى لأبغض الموت على فراشى فكيف أسعى إليه ركضا ؟ " .

وحضر بعض الجبناء جربا فقيل له تقدم فأنشد يقول :

وقالوا تقـــدم قلت لست بفاعل	أخاف على فخارتى أن تحطما
فلو كان لى رأسان أتلفت واحدا	ولـكنه رأس إذا راح أعقما
ولو كنت مبتاعا من السوق مثله	فعلت ولم أحفل بأن أتقدما
أأوتم أطفالا وأرمل نســوة	فكيف على هــذا ترون التقدما ؟

ويقول أبو نواس :

مالى وللبيض والأرماح أحملها	الخــوف خير وأبقى أيها النـاس

كلمة ختـامية :

نعود فنتساءل " هل الحرب شر لا بد منه " ؟

لقد استعرضنا عوامل الحرب وعوامل السلام ، ولكننا نسينا أن نقرر أن الحرب كانت فى كل وقت أبلغ دعاة السلام ! ذلك أن جهنم الحرب التى تنصب على البشرية فى عنف وقسوة ، تضطر هذه البشرية إلى محاولة الاهتداء العاجل إلى نعيم السلام وفردوس الأمان.

الحـرب إذن تحمل فى كيانها جرثومة فنائها ، وإذا كان جوابنا فى المـاضى على سؤال الليلة " نعم الحرب شر لابد منه " فنرجو أن يكون جوابنا فى المستقبل " كلا بل الحرب شر قد انتهينا منه " .

عبد الحميد عبد الحق